السَّلاميُّون العرب الجُدُد

مُغفَّلون أَمْ يَسْتَغفلون؟

. فيصل القاسم * .

أحيِّيكم!

لعلّ أكثرَ الشعارات بروزًا لدى مَنْ يسمُّوْن بـ «الليبراليين العرب الجدد» هو شعار «نبذ العنف والقوة،» والتشهيرُ بالإرهاب والإرهابيين واللاجئين إلى الحديد والنار. فقلّما تخلو مقالةٌ لليبراليّ عربيّ جديد من إدانة الجماعات الإسلامية والمقاومة في العراق وفلسطين، كما لو أنّ مناهضةَ العنف والدعوةَ إلى الاستسلام الكامل أصبحتا مقرَّرًا صحفيًا مفروضًا في الكتابات الليبرالية العربية الجديدة لا تكتمل مقالاتُهم من دونه. والويل كلّ الويل لمن لا يشنِّع بالعنف والداعين إليه في مقدِّمة أيّ مقالة «ليبرالية» يَكْتبها، حتى وإنْ كان موضوعَها زراعةُ قصب السكّر في كوبا أو صناعةُ الفخّار في جنوب غرب اليابان أو حتى ترويضُ الأُسود في غابات الأمازون.

إنّني أحيِّي هذه الإنسانية المفرطة لدى زملائنا الليبراليين، لا بل أقف إجلالاً وإكبارًا لهذه «الغاندية» العربية الجديدة وهذا الحرص العظيم على أرواح الحيوانات والطيور الأليفة والناس وممتلكاتهم وحلّ النزاعات بالطرق السلمية الحضارية ومخاطبةِ الآخر بالحوار والكلام الجميل بدل الرصاص والبارود والسيارات المفخَّخة. لا أستطيع أن أثني بما يكفي على هذه الروح المسالمة والرومانسية الإنسانية العالية لدى أصحاب البيانات العالمية المطالبة بمكافحة الإرهاب وملاحقةِ مروِّجيه، خاصة وأنّنا شَهِدْنا في الآونة الأخيرة إسهالاً منقطعَ النظير من البيانات الليبرالية الداعية إلى تعميم ثقافة السِّلْم والسلام وإدانةِ العنف ومطاردةِ كلِّ مَنْ يتفوّه بكلمةٍ يتيمةٍ من كتّابٍ وفقهاءَ لصالح المقاومة بأشكالها كافةً.

ولعلّنا قرأْنا ذلك البيانَ الشهيرَ الموجَّه إلى الأمم المتحدة الذي وَقّع عليه الآلافُ من زملائنا المُتَلَبْرلين يطالبون فيه المنظمةَ الدولية بتشكيل مَحكمةٍ خاصةٍ لمحاكمة بعض رجال الدين الذين تجرّأوا وطالبوا بمقاومة المحتلّين في العراق وغيره. لا أدري لماذا يحاول هذا الرهطُ من المثقفين «الطُّهُوريين» تغطيةَ عين الشمس بغربال. فإمّا أنّهم سذَّج، وإمّا أنّهم يَعْرفون البئرَ وغطاءها لكنّه مطلوبٌ منهم أن ينزعوا ما تبقّى من نخوةٍ وحميّةٍ لدى هذا الشعب العربي وحكوماته التي بات مطلوبًا منها التخلّي حتى عن سكاكين مطابخها... ناهيك عن أسلحتها الخفيفة.

لا غبار أبدًا على ضرورة تخليص هذا العالم من الإرهاب والعنف والدموية وجعلِهِ «جمهوريةَ أفلاطون» وادعةً مسالمةً. لكنْ، باللّه عليكم، لماذا تدينون الضحيةَ التي تحاول يائسةً الذودَ عن نفسها، وتُغضّون الطرفَ عن سادة العنف والقوة في هذا العالم؟ مَن الذي يَمْتلك ترساناتٍ تقليديةً ونوويةً خيَاليةً ووسائلَ إرهاب عَزّ نظيرُها في التاريخ: «الإرهابيون العرب،» أم القوى التي تروِّع العالمَ من أقصاه إلى أقصاه بما تَوَفَّر لها من أدوات السيطرة والهيمنة والإخضاع والترويع والترهيب؟ لماذا تكرِّرون قصةَ الذئب والحَمَل الشهيرة، حيث يقوم الذئبُ بتعكير مياه النبع من أعلاها ثم يَتّهم الحَمَلَ المسكينَ القابعَ في أسفل النبع؟

الصورة الكاملة

لا أريد طبعًا أن يُفْهم من كلامي أنّ كل الجماعات العربية هي حملانٌ وديعة؛ على العكس من ذلك: هناك جماعاتٌ إرهابيةٌ شنيعة لا يُمْكن أيَّ عاقلٍ أن يباركَ أفعالَها. لكنْ بدلاً من التركيز فقط على كلّ ما هو إرهابي عربي لا بدّ من توضيح الحقيقة للشعوب حتى تكتملَ الصورةُ والتوقف عن دعوتها إلى الاستسلام المجاني.

هل قرأ إخوتُنا الليبراليون العربُ الجدد التاريخَ؟ بالطبع. لماذا يتجاهلون، إذن، أنّ التاريخ منذ بدْءِ الخليقة لم يكن سوى سلسلة فظيعة من الحروب والمجازر والاقتتال والتصادم والعنف والقوة؟ وقد أَظْهرتْ دراسةٌ أجراها أحدُ معاهد حقوق الإنسان أنّ ١٥٪ فقط من التاريخ

---

* - إعلامي عربي. مُعِدّ ومُقدِّم برنامج «الاتجاه المعاكس» في قناة الجزيرة.

القوة هي مصدر كل السلطات، فلا مفرّ من إعادة البناء وشحن كيانات بشريةٍ قادرةٍ على المواجهة

الإنساني شَهِدَ سلامًا وهدوءًا، بينما اتسمت فترةُ الـ ٨٥٪ الباقية بالصراعات العنيفة والحروب المدمِّرة. ولو كان هناك حوارٌ فعلاً بين الأمم والشعوب لما شَهِدَ التاريخُ أنهارًا من الدماء. جميل أن ندعو إلى الحوار وأن ندين الداعين إلى العنف، لكنْ متى كان الحوارُ سيِّدَ الموقف عبْر تاريخ البشرية؟ وهل تقدَّمَ العالَمُ أصلاً إلا بالقوة والعنف؟

يقول المفكّر المصري أحمد عبّاس صالح: «ما إنْ تقرأ كتابًا في التاريخ حتى تجد أنّ محوره هو الحروبُ وفرضُ الرأي أو المصلحةِ بالقوة، حتى لو كان الكِتابُ عن تاريخ العِلْم أو تاريخ الاقتصاد وربما الفنون أيضًا. ولم تَعِش المجتمعاتُ البشرية حتى اليوم على ما تُنْتجه أو تبتكره من منجزات الحياة من طعام وشراب وضروريات، بل على ما تتطلّع اليه في أيدي الآخرين. وما من نقلةٍ تاريخيةٍ من نظام إلى آخر، أو تقدُّمٍ في هذا الجانب او ذاك، إلا وتجد أنّه كان مصحوبًا بالقوة. والتجارة، والاقتصاد بشكل عام، لم يتطوّرا أو يتقدما في أيّ بلد إلاّ وهما مصحوبان بالجيوش والسفن الحربية التي تَجُوب البحارَ لقمع الآخرين وفرض التجارة عليهم أو سلبِ الثروات التي يمتلكونها.»

إنّ تاريخ الغرب «الليبرالي» الحديث هو تاريخُ الحروب الصغرى والكبرى، وأوروبا هي القارةُ الوحيدةُ التي أشعلتْ حربيْن عالميتيْن في قرن واحد راح ضحيتَهما مئاتُ الملايين من البشر. فلماذا يتناسى زملاؤنا من الليبراليين العرب الجدد أنّ العنف عنصر أساسي في التاريخ؟ لقد عبّر الكتّابُ والفنانون طوال نصف القرن الماضي عن أحلام بالسلام والتضامن الانساني، مع أنّ الدول الكبرى كانت تَخُوض سباقًا رهيبًا من أجل التسلح، بما في ذلك الأسلحةُ الفائقةُ الدمار، حتى أصبحت الدولتان العظميان ـ وهما في ذلك الوقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ـ قادرتيْن على تدمير الكرة الأرضية أكثرَ من مرة.

ولا يُمْكننا إلاّ أن نتفق مع أحمد عبّاس صالح عندما يقول: «لو استعرضنا ظروفَنا في العالم الثالث نجد أنّه طوال قرن تقريبًا ـ خاصةً في الشرق الأوسط ـ أُجهِضت الروحُ الحربية. فعندما صُفِّيتْ دولةُ محمد علي في مصر، وانكسرتْ بعد ذلك بقليلٍ ثورةُ الجيش المصري التي قادها أحمد عرابي، لم يُقلَّص عددُ الجيش وأسلحته فحسب بل قُلِّصت النزعةُ الحربيةُ [أيضًا]. وربما نستطيع القولَ بأنّ النخوة أيضًا قد انتُزعت انتزاعًا بسبب إرهاب القوة وأساليب الإذلال المختلفة. وصار الذي تَمْلكه شعوبُ المنطقة هو التظاهرات المدنية المجرَّدة من أيّ سلاح. وكم استُشْهد شبابٌ هذه المناطق في المظاهرات، ومضى وقتٌ طويل لم يَدْخل فيه جيشٌ من هذه الجيوش أيَّ معركة حربية.»

لماذا يُطْلَبُ منّا، نحن العربَ والمسلمين، أن نستكينَ وننزويَ كالرهبان أو أن نصبحَ قطعانًا من الحملان الخانعة، بينما يواصلُ المجتمعُ «المتقدِّم» ـ الذي يروِّج الليبراليون العرب الجدد قيمَه وعقائده ـ شَحْذَ الميول العدوانية لدى أبنائه والعنايةَ ببنائهم الجسدي وقواهم العضلية وتنميةَ نزعات الفضول وحبِّ المغامرة والاندفاع إلى المخاطر؟ وكم من حوادثَ مميتةٍ في سباق السيارات أو ألعاب القوى العنيفة والرحلات المحفوفة بالمخاطر، ولكنّ هذا لم يَجْعل المجتمعَ «الليبراليَّ المتقدم» يوقف هذه الألعابَ والنشاطات أو يحدّ من هذه الميول. وإلى اليوم يَصْعب أن يتجمّع جمهورٌ من هذه الدول المحاربة في أيّ مكان من دون أن تَحْدث مصادماتٌ تؤدِّي في أحيان كثيرة إلى الجراح المميتة، ويتجلّى فيها العنفُ بأقصى درجاته، كما شهدنا في جماهير مشجِّعي كرة القدم في بريطانيا وغيرِها من الدول الأوروبية المحاربة الأخرى.

لقد كانت الديانةُ المسيحيةُ التي تشكّل الخلفيةَ الثقافيةَ للمجتمعات الليبرالية المتقدمة تدعو إلى التسامح والغفران والسلام («مَنْ ضَرَبَكَ على خَدِّك الأيمن...»). ولكنْ في فورات الإيمان القديمة التي عاشتها بعضُ الدول الأوروبية كان القتلُ والحرقُ والتعذيبُ والإبادةُ العرقيةُ أحيانًا جزءًا من الإيمان العميق باعتباره جهادًا ضد الكَفَرَة المخالفين للدين، أو المارقين من

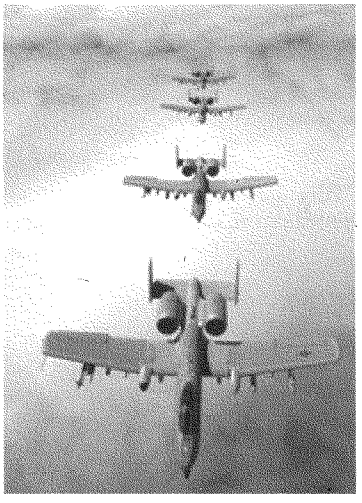

من الذي يَمْلك ترسانات خيالية: «الإرهابيون العرب» أم القوى التي تروِّع العالم من أقصاه إلى أقصاه؟

أبناء الديانة المسيحية نفسها. أما عن الحروب باسم «ديانة السلام والمحبة» فحدِّثْ ولا حَرَج.

نعم لم يكن الأمرُ مقصورًا على المسيحيين الأوروبيين أو الغربيين؛ فقد شارك الجنسُ البشريُّ كلُّه بمختلف عقائده في تلك النزعة العدوانية بغرض التوسع في الثروة أو السلطة. ذلك أنّ خصالَ العنف أو غرائزَ التسلط هي الأصلُ الفطريّ الذي قد يَبْحث عن مبرِّر عقلاني او أخلاقي عندما تُعْوزه الحاجةُ إلى ذلك. فهل ثمة خطأٌ في الثقافة السائدة في مجتمعات العالم الثالث وفي المنطقة العربية بصفة خاصة؟ وما الذي يجب عملُه؟ بالطبع من حقنا أن نتساءل: هل القوة بأشكالها المختلفة، هي القانون الأساسي الذي يَحْكم مسيرةَ الجنس البشري إلى اليوم؟ واذا كان الأمرُ كذلك، فماذا على شعوب العالم الثالث أن تفعل؟ هل عليها أن تعيدَ تربيةَ أبنائها على أساس مبدإ القوة والعنف، كما يتساءل صالح؟

لا مفرّ!

إنّ شواهد عديدة هذه الأيام تبيِّن لنا أنّ القوة هي مصدرُ كلّ السلطات، وأنّ العنف هو العنصرُ الملازمُ لكل حركة في التاريخ البشري. وإذا كان الأمر كذلك فلا مفرّ من إعادة البناء وشحذِ كياناتٍ بشريةٍ قادرةٍ على المواجهة والتصدي، بدلاً من الدعوة إلى مطاردة المقاومين وتقليم أظافر المتململين وإخصاءِ ما تبقّى لنا منَ فحول. وعندما يصبح العالمُ قريةً وادعةً تَنْعم بالهدوء والسكينة والخير والسلم وتختفي العقبانُ والكواسر، فلا ضيْرَ عندها من مطالبة الأمم المتحدة بتشكيل محكمة خاصة، لا بل محاكم قراقوشية في كل قريةٍ لملاحقةِ ومحاكمةِ حتى المعلِّمين والمعلِّمات الذين يَضْربون التلاميذَ على مؤخِّراتهم!

قطر

الحبيب السالمي روائي تونسي. صدرت له ستُّ روايات ومجموعتان قصصيتان. حاز جائزة الدولة للقصة عام ١٩٧٨ عن مجموعته، مدن الرجل المهاجر. كما فازت روايته، عشاق بيّة، الصادرة عن دار الآداب بجائزة لجنة التحكيم لـ «كومار» للرواية في تونس عام ٢٠٠٢. تُرجمتْ بعضُ رواياته إلى اللغتين الفرنسية والألمانية.